مجلة جامعة تشرين للبحوث والدراسات العلمية _ سلسلة الآداب والعلوم الإنسانية المجلد (33) العدد (2)2011
Tishreen University Journal for Research and Scientific Studies - Arts and Humanities Series Vol. (33) No. (2) 2011

شعراء الرَّغيف في العصر العباسي

الدكتور منيف أحمد حميد وش *

(تاريخ الإيداع 20 / 2 / 2011. قبل للنشر في 2 / 5 / 2011)

∇ ملخّص ∇

شعرُ الرَّغيفِ ظاهرةٌ برزت في العصر العباسي ، بعد أن تطوَّرت وأخذت أبعادُها لتكوِّن إبداعاً شعرياً وفنياً عكسَ صورةَ الحياةِ في ذلك العصر، وقد لجأ إليه الشُّعراء للتعبيرِ عن همومهم ومشكلاتهم الاجتماعية بأسلوبٍ مميزٍ، ومضحكٍ وهو أيضاً شعرٌ لا يُعنى بمعانيه وأخيلته، فالشاعرُ ينظمُ قصيدتَهُ عفوَ الخاطرِ غيرَ متكلفٍ ،وهي أشعارٌ تمسُّ القلوبَ بصدقها، فما من سائلٍ يسألُ إلاَّ لحاجةٍ أدركتْهُ، وغالباً ما تكونُ الحاجةُ ملحَّةٌ إلحاحَ الجوعِ .

وقد تناول شعراء الرَّغيفِ قضايا كثيرة في أشعارهم؛ كالحديثِ عن فقرهم وسوء أحوالهم، وما يعانونه من إهمالٍ وتدني منزلةٍ في المجتمع، كما انتقدوا مجتمعهم وأهله انتقاداً ساخراً، وكشفوا كثيراً من مفاسده وخباياه، وهذا ما جعل من شعر الرَّغيف وثيقةً اجتماعيةً ونفسيةً بالغةَ الأهميَّةِ.

ومما يحمدُ لشعراءِ الرَّغيفِ تجديدهم الواسعَ في بنيَّةِ القصيدةِ، أنهم ألغوا مقدماتها حيناً،واستبدلوا بها مقدماتٍ تصفُ فقرَهم وسوءَ أحوالهم حيناً آخر، وحاولوا الاستقلال في القصيدةِ حيناً ثالثاً، لكنَّ جميعَ محاولاتهم لم تكن قادرة على التصدي لتقاليد الشعر العربي الراسخة، ولاسيما المقدمات، والتغلب عليها، وإن كانت محاولاتهم جديرة بالاهتمام.

الكلمات المفتاحية: الرغيف، الفقر ، سوء الحال .

* دكتوراه في الأدب العباسي,مشرف على الأعمال، جامعة تشرين،كلية الآداب, قسم اللغة العربية, سورية، اللاذقية–سورية.

مجلة جامعة تشرين للبحوث والدراسات العلمية _ سلسلة الآداب والعلوم الإنسانية المجلد (33) العدد (2)2011
Tishreen University Journal for Research and Scientific Studies - Arts and Humanities Series Vol. (33) No. (2) 2011

Bread Poets in the Abbasid Age

D. Monef Ahmad Hmaedoush*

(Received 20 / 2 / 2011. Accepted 2 / 5 / 2011)

∇ ABSTRACT ∇

Bread poetry is a phenomenon which appeared in the Abbasid age . It developed and took its dimensions to be a poetic and artistic creation which reflected the image of life in that age. Poets used this fact to express their cares and social problems through a special and comic style . It is also poetry which doesn't focus on its meanings and imagination . The poet writes his poem spontaneously, without hesitation or pretending . It is poetry which touches hearts for its frankness-no questioning without need-and this need is often urgent up to the extent of starvation.

The bread poets tackled many issues in their poems such as their poverty deterioration suffering from neglect and low social status. They also criticized their society and its citizens very strongly. They uncovered much of its corruption and hidden issues. This made bread poetry a very important social and psychological document .

What distinguishes bread poets is their broad development of structure of the poem . First, they abandoned introductions . Secondly, they replaced them by ones which describe their poverty and despair. On other occasions, they tried to be autonomous in the poem . Though their attempts were not able to face the permanent traditions of Arabic poetry, their attempts found some interest among people.

Keywords: bread, poverty, deterioration.

***Doctor in Abbasid age, employ on the work, tishreen university, Arabic department, latakia, Syria.**

مقدمة:

يعدُّ الشِّعر من أرقى فنون التعبير, وأصعبها تعريفاً, لأنَّه يختلف باختلاف الحضارات والمراحل , وأيضاً باختلاف طبائع الشعراء، والمنابت التي يتحدَّرون منها, والثقافات التي يستقون منها , والظروف التي يعيشونها، ويبقى الشِّعر الفن الذي يحرك فينا كلَّ ما فينا, فهو ابن العقل, وصنو العاطفة, وصديق الخيال, والمتسلل بموسيقاه إلى كل حنايانا,وهو أيضاً الأقرب إلى ذاكرتنا الجمعية لكونه أقدم الآثار الأدبيَّة في جميع الحضارات لارتباطه بالشعائر الدينية غالباً .

وشعر الرغيف في العصر العباسي هو وجه من وجوه القمر الأكثر إشراقاً, والأجدى فائدة, ولعله الأقرب منالاً بالنسبة للجائع، وهو دواء لداء إن لم تطعمه قتلك ,وإن لم تسكته صاح في أحشائك، حضوره على موائد المترفين تكملة للطعام, وعلى موائد الفقراء هو كل الطعام ،وهو هذا الدائري الأبيض الوهاج الذي دوماً كان حراً في وهب ذاته لمن يشاء, فتراه يقبل على فئة حتى تملَّه فترميه فتاتاً, ويحتجب عن فئة أخرى حتى تتمنى الالتقاء بهذا الفتات .

هذا هو الرغيف كما تقرؤه في عيني جائع, فكيف إذا كان هذا الجائع شاعراً ؟!

نعم إن مشكلة الرغيف هو المعادل الموضوعي للجوع, كان الأتون الذي تقلَّى به ثلَّةٌ من الشُّعراء في العصر العباسي, إذ عاشوا الضَّنك بكل حالاته وأحواله, وتعايشوا مع الحرمان بكل أنواعه, حتى باتت زيارة الرغيف لدارهم مرَّة تفوق بهجتها بهجة العيد[1] .

و هذا الرغيف الذي يشكل في حياتهم "الحاجة والحلم" معاً, قد بذلوا في سبيل كسب ودِّه كلَّ وسيلة, فاعتصروا مواهبهم, وجنَّدوا قصائدهم, وراحوا يتغزلون به تغزلهم بالنِّساء الحرائر كونه بالنِّسبة إليهم مثلهن من المحصنات.

أهمية البحث وأهدافه:

تكمن أهمية البحث من خلال التركز على الشِّعر الذي حدا بقائليه إلى مسالك كانت وراء شهرتهم, ومن خلال التجوال في عوالم زمر من الشُّعراء العرب ممن ربطت بينهم مسالك لم يصطنعوها رغم أنَّهم عاشوها بوعي كبير, وكانوا ممثليها في ممارسة الخطاب الشعري .

وهذه المسالك وإن كانت غير مقتصرة على عصر دون عصر, إلاَّ أنَّ العصر العباسي يبقى الميدان الأرحب الذي نادراً ما تجاوزه شعراء هذه المسالك تأخيراً أو استباقاً ،ولقد انتظمت تلك المسالك ضمن التيَّارات الأدبيَّة الكبرى التي كانت تظهر في كل عصر من عصور تاريخنا الأدبي عبر تناول الكتاب لها في دراساتهم الأدبية الثَّرةِ الفائدة التي قدموها للمكتبة العربية, لكنَّها لم تتضح كعناوين عريضة, وكان الالتفات إليها قليلاً وهذا ما حدا بي لوضعها كعنوان رئيس, والتركيز عليها وفي هذا فائدة تزيد على ذكرها ضمن تيَّارٍ قويٍ أدبيٍ يبتلعها في جوفه .

وما كذلك التركيز على نوعٍ خاصٍ كان يصور ما كانت عليه الرعية من تعاسة وبؤس, فالمجتمع كان مؤلفاً من قسم آمن يعيش حياة البذخ دون عناء, وقسم آخر يضم الأغلبية, و يرزح تحت أثقال البؤس, فكان من الطبيعي أن يكثر الشعراء الذين يصورون ما يتجرعونه ويتجرعه الشعب من الفقر والتعاسة، ومن المؤكَّد أنَّ جلَّ هذا الشِّعر قد

[1] شعراء ومسالك في العصر العباسي: كارين صادر، منشورات وزارة الثقافة ، سورية،2007،ص14

ضاع, ولم يسجل ويحفظ, وأمَّا الحكَّام, فلم يكترثوا له لأنَّه يظهر تقصيرهم حيال رعاياهم, وأمَّا هؤلاء الشُّعراء , فلم يكونوا قادرين على تجاوز محنة القوت اليومي .

منهجية البحث :

أمَّا المنهج الذي اتبعه البحث فهو تصنيف شعراء الرغيف حسب قدمهم ، وكيفية تناولهم لهذه الظاهرة، وقد كانت الأفكار متشابهة إلى حدٍّ بعيد، فالظروف التي مرَّ بها الشعراء واحدة، والأسباب ، والدوافع كلَّها واحدة ،وقد اعتمد البحث المنهج التحليلي الذي يستنطق النصوص، جاعلاً لنتائج تحليل النصوص الأهمية الأولى في إطلاق الأحكام والنتائج، مستعيناً بما يتصل بالنص من قيم تاريخية، أو اجتماعية، مما يزيد في دقة الأحكام .

وقد تناول البحث أسباب بروز شعر الرغيف،أو ما يسمى بشعر الكدية في الشعر العربي، من خلال مقدمة سريعة تكلمت فيها على نشأته وأشهر أعلامه في العصر العباسي ثم أسهبت القول في أسباب بروزه في العصر العباسي ، وذكرت أهم الأهداف التي سعى شعراء الرغيف للوصول إليها. وعن أسباب ازدهار فن شعر الرغيف في العصر العباسي، ونماذج من أشعار الشعراء في ذلك،وأهم من كتب في الرغيف، وختمت البحث بالكلام على أهم النتائج التي توصلت إليها.

لذلك فإنَّ تناول شعر الرَّغيف في القرن الثاني الهجري من العصر العباسي لا يتمُّ إلاَّ بعرض الأسباب التي شكَّلت المفرش التمهيدي لولادته, و هنا نعود على الأخص لسببين: أحدهما اقتصادي , والآخر أدبي .

أمَّا السَّبب الاقتصادي : فيتلخص في أنَّ المجتمع العباسي كان مؤلفاً من طبقتين متفاوتتين , تقف إحداهما على رأس السلم الاقتصادي , بينما تقف الأخرى في أسفله[2].

الأولى : مؤلفة من الأرستقراطيين العرب, وأصحاب الثروات, والثانية : مؤلفة من تلك الكتلة الشعبية الضخمة من العرب وغير العرب الذين لم تتح لهم فرص الثراء, لأنَّ الأموال كانت موزعة توزيعاً غير عادل بين السادة وحواشيهم, ومن يحفُّون بهم من جهة, وبين العامة التي استمرت جاثمة في البؤس, لا تجد ما تخمد به نار الجوع التي تلتهم أحشاءها من جهة أخرى[3] .

أمَّا السَّبب الأدبي : فيعود إلى مكانة الشاعر التي تبدلت, فقديماً كان الشاعر وشعره صورة لقبيلته, حاله من حالها,ومآله من مآلها. وظلَّت هذه الصلة قائمة في العصر الإسلامي, والأموي, لكن مع تحول الموضوع من القبيلة إلى الدولة, وهكذا بات الشاعر الأموي بوقاً لدولته .

واستمر هذا التحول حيَّاً في العصر العباسي, وفي القرن الثاني منه ظهرت نزعة التعبير عن الذَّات, والمقصود بها العكوف على النفس وتحليلها ،فحينما كان الشاعر يتغزل يصف محبوبته وصفاً مجرداً، أو يطلعنا على جانب تقريري من حبِّه, ويبقى بعيداً عن فتح آبار ذاته وصبِّ عواطفها وأحاسيسها في شعره, نجد أنَّ الشُّعراء في القرن الثاني الهجري من الحكم العباسي, الذي هو قرن التجديد والتَّطور, قد عكفوا على قلوبهم يستنطقونها فتجيبهم, وتفتح مغاليق أسرارها لهم[4].

---

[2] حياة الشعر في الكوفة : يوسف خليف،وزارة الثقافة، مصر، بلا تاريخ،ص471.

[3] العصر العباسي الأول : شوقي ضيف , مصر، دار المعارف، ط2 ،1966، ص 434 .

[4] اتجاهات الشعر في القرن الثاني الهجري, مصطفى هدارة ,مصر،دار المعارف،1963، ص 174.

والسَّبب في هذا التحول هو أن جمهور الشعراء في العصر العباسي كانوا من طبقة العامة، وحتى من عاش منهم في قصور الخلفاء ظل موصولاً بالشعب وروحه، وهكذا أصبح للشعب لسان حال, وأصبح لمعاناته وأحاسيسه ساعة حرة تجول فيها كما تريد عبر رافد جديد صبَّ في نهر الشِّعر العربي هو ((الشِّعر الشَّعبي)).

وقد هيأ هذا البؤس لاحقاً لظهور طائفة عرفت ((المُكدِّين))[5] كان أول من تحدث عنها (الجاحظ) وذلك في مطلع كتابه البخلاء عندما عدَّد أصناف المسؤولين ونذكر منها:

{(المخطراني[6]، الكاغاني[7]، البانوان[8]، والقَرَسي[9]، والمشعب[10]، والفلور[11]، والكاغان[12]، والعواء[13]، والإسطيل[14]، والمزيدي[15]،والمستعرِض[16]،والمُقدَّسُ[17]،والمكدي[18]،والكعبي[19]، والزكوري[20].}[21]

وبالعودة إلى شعراء الرَّغيف نجد أنَّ بعضهم قَصَرَ موهبته على استدرار عطف المخاطب عبر تصوير بؤسه وبؤس أولاده الذين يعضَّهم الجوع,وكان خير من صوَّر حاله,ووصف كيف يعيش وأولاده عراة جائعين,ويحلمون بالرَّغيف هو الشَّاعر (شويس) المعروف بأبي فرعون السَّاسي التيمي العدوي، وهو أعرابي بدوي سكن البصرة وعاش فيها محتاجاً, وقد ترجم له ابن المعتز في طبقاته فقال: "وكان من أفصح الناس وأجودهم شعراً, وأكثرهم نادرة, لكنه لا يصبر على الكدية ". [22]

قال :حدثني أبو محرز الكوفي قال: أتى أبو فرعون السَّاسي أبا كهمس التاجر فسأله، فأعطاه رغيفاً من الخبز الحُوَّارَي[23] كبيراً، فصار إلى حلْقة بني عَدِيّ، فوقف عليهم وهم مجتمعون، فأخرج الرغيف من جرابه، وألقاه في وسط

---

[5] العصر العباسي الثاني ،شوقي ضيف،مصر ،دار المعارف،ط2،1966 ، ص 449 .

[6] المخطراني: الذي يأتيك في زي ناسك ويريك أن بابك زعيم الفرقة الخرمية قد قور لسانه من أصله لأنه كان مؤذناً.

[7] الكاغاني:الذي يتجنن ويتصارع ويزبد .

[8] البانوان : الذي يقف على الباب ويسلُّ الغلق.

[9] القرسي: الذي يعصِبُ ساقه وذراعه عصباً شديداً.

[10] المشَّعب: الذي يحتال للصبي حين يولد، بأن يعميه أو يجعله أعسم، أو أعضد .

[11] الفلور : الذي يختال لخصيته حتى يريك أنه آدر(من كان في خصيته نفخه).

[12] الكاغان:الغلام المكدي إذا أوجر، وكان عليه مسحة من الجمال.

[13] العواء: الذي يسأل بين المغرب والعشاء.

[14] الإسطيل: هو المتعامي، إن شاء أراك أنه منخسف العينين(ساخت)، وإن شاء أراك أن بهما ماء، وإن شاء أراك أنه لايبصر.

[15] المزيدي: الذي يدور ومعه الدريهمات جمعها من ثمن دثار مخمل ،ويقول زيدوني فيها رحمكم الله.

[16] المستعرض :الذي يعارضك وهو ذو هيئة ، وفي ثياب صالحة، وكأنه مات من الحياء .

[17] المقدس :الذي يقف على الميت يسأل في كفنه، ويقف في طريق مكة على الحمار الميت.

[18] المكدي : صاحب الكداء.

[19] الكعبي: نسبة إلى أبي بن كعب الموصلي.

[20] الزكوري: هو خبز الصدقة، كان على سجين أو كان على سائل.

[21] البخلاء: الجاحظ،دار صادر، بيروت،طبعة منقحة، ص44-45 .

[22] طبقات الشعر : ابن المعتز، تحقيق عبد الستار أحمد فراج،مصر ، دار المعارف ،1965،ص376.

[23] الحُوَّارَي : الدقيق الأبيض .

المجلس وقال: يا بني عَدِيّ استفحلوا[24] هذا الرَّغيف، فإنَّه أنبل نِتاج على وجه الأرض، قالوا: وما ذاك؟ فأخبرهم، فاجتمعوا إلى أبي كهمس التَّاجر فقالوا: عرَّضتنا لأبي فرعون وقد مزَّقنا كلَّ ممزق.[25]

وهو القائل في وصف حاله:

ليس إغلاقي لبابي أنَّ لي فيه ما أخشى عليه السَّرقا
إنَّما أغلقه كي لا يرى سوءَ حالي مَنْ يجوبُ الطُّرقا
منزلٌ أوطنه الفقرُ فلو دخلَ السَّارق فيه سُرقا
لا تراني كاذباً في وصفه لو تراهُ قلتُ لي: قد صَدَقَا[26]

ومن شعره في وصف حاله إلى الحسن بن سهل و قد أجمع الناس على حسنها و فصاحتها:

سُقياً لحيٍّ باللِّوى عهدتُهُمْ منذ زَمان ثمَّ هذا عهدُهُمْ
عهدتُهمْ والعيشُ فيهِ غِرَّة ولم يناوِ الحدَثَانُ شعبَهُمْ
النَّاس أشباه كما قد مُثِّلوا وفيهمُ خيرٌ وأنتَ خيرُهُمْ
حاشا أميرَ المؤمنـنَ إنَّهُ خليفةُ اللَّـهِ وأنتَ صِهْرُهُمْ
إليك أشكو صبيةً وأمهم لا يشبعونَ وأبوهم مثلهمْ
قد أكلوا اللَّحم ولم يُشبعُهمْ وشربوا الماء فطال شربهمْ
و امتذقوا المذق فما أغناهم والمضغُ إنْ نالوه فهو عُرسهمْ
لا يعرفون الخبزَ إلاَّ باسمه والتَّمرَ هيهات فليس عندهمْ
وما رأوا فاكهةً في سوقها وما رأوها وهي تنحو نحوهمْ
زُعرُ الرءوس قُرِّعت هاماتُهم من البلاء واستكَّ منهم سمعُهمْ
كأنَّهم جِنابُ أرضٍ مجدبٌ مَحلٌ فلو يعطون أوجى[27] سَهمُهمْ
بل لو تراهُم لعلمتَ أنَّهم قومٌ قليلٌ ريُّهم وشبعُهمْ
وجحشُهم أجربُ منقورُ القَرَى ومثلُ أعواد الشُّكاعى[28] كلبُهمْ
كأنَّهم كانوا وإن ولَّيتهم طراً موالي وكنت عبدَهمْ
مجتهداً بالنُّصح لا آلوهم أدعو لهم يا ربِّ سلِّم أمَّهمْ[29]

وتتوالى في هذه القصيدة صور الجوع وما خلفه في أجساد هؤلاء الفتية حتى قرعت هاماتهم, واستكَّ سمعهم وهم يحتالون على التَّضور بشرب الماء,إذ لا يوجد ما يمضع في دارهم، فهم لا يعرفون الخبز والتَّمر سوى بالاسم فقط مع أنَّهما من أساسيات الغذاء التي كان الفقراء يقتاتون منها .

[24] استفحله : اتخذه فحلاً .
[25] طبقات الشعر : ابن المعتز،ص376 .
[26] المصدر السابق: ص377.
[27] في الأصل : أوحى. وأوجى الرجل: جاء لحاجة فلم يصبها. ويقال سأل حاجة فأوجى : أي أخفق .
[28] الشكاعى : نبات دقيق العيدان ضعيف الورق .
[29] طبقات الشعراء : ابن المعتز، ص 378.

ولأبي فرعون السَّاسي قصائد كثيرة من هذا القبيل, ومنها أنشودة للفقر ينصب نفسه فيها أباً للفقر وأماً له ويصوِّر فيها يوماً من أيام الشتاء القارسة التي قضاها بصحبة البرد والجوع هو وعائلته ،يقول من الرجز:

وصبيـةٍ مثـل فـراخِ الـذرِّ سُـودُ الـوجوه كسوادِ القِـدرِ
جـاء الشتـاءُ وهـم بِشَـرِّ بغيرِ قُمصٍ وبغيـر دُثُـرِ
حتى إذا لاح عمـود الفجر وجـاءني الصبح غدوت أسري
وبعضهـم ملتصـق بصـدري وبعضهم مُنحَجِـرٌ بحجـري
أسبقهـم إلـى أصـول الجدرِ هـذا جميـعُ قصتـي وأمـري
فارحـم عيالـي وتولَّ أمري كُنِّيتُ نفسـي كُنيةً فـي شِعري

أنـا أبـو الفقر وأمُّ الفقر [30]

عاذر بن شاكر الشاعر:

ومن شعراء الرغيف أيضاً (عاذر بن شاكر) المعروف بـ(أبي المخفَّف)، وكان في أيام المأمون، وبعد ذلك من ساكني بغداد ، وله أشعار كثيرة في وصف الخبز، وروى ابن الجراح عنه أنَّه كان طريفاً طيباً ، يركب حماراً، وتركب جاريةٌ له حماراً، وتحتها خرج ، ويدور في بغداد ولا يمرّ بذي سلطان، ولا تاجر، ولا صانع إلاَّ أخذ منه شيئاً يسيراً مثل قطعة، أو رغيف ، أو كسرة يقول من المجتث :

دع عنكَ رسـم الـدِّيـارِ ودع صـفـات القَـفـارِ
وَعَـدِّ عـن ذكـرِ قـوم قـد أكثـروا فـي العقـارِ
ودع صفـات الزنـانيـ ـر فـي حضـورِ العذارى
وصِـفْ رغيفـاً سـريـاً جَلستْـهُ شمـسُ النَّهـارِ
أو صـورةَ بـدرٍ لمـا اسـ ـتتـمَّ فـي الاستـدارِ
فليـس يَحسُـنُ إلاَّ فـي وصفـه أشـعـاري
وذلك أنَّـي قـديمـاً خلـعتُ فيـهِ عِـذاري[31]

إنَّه يتدله في الرَّغيف و يمتلىء به قلبه المحروم حباً وصبابةً، وقد استعار له عبارة "خلع العذار" التي غالباً ما كان يطعم بها شعراء المجون أشعارهم الخمرية والغزلية للرَّدِّ على لوم العُزَّالِ .

وقد شبَّه شاعرنا أبو المخفف هنا حال طلبه للرغيف بحال طلب المجَّان للذائذ، وذلك لشدة ولعه به وطلبه إياه. ومن قصائده أيضاً في طلب الرغيف قوله :

جـانبـتُ وصـلَ الغـانيات وصحـوت عـن وصـل اللواتي
نعمـتْ بهـن عيـون مـن واصلنـه حتـى الممـات
فدعِ الطَّلـولَ لجـاهـلٍ يبكـي الـدِّيـارَ الخـاليـاتِ
ودعَ المديـحَ لأمـردٍ ولـخـادم ولغـانيـاتِ

[30] المصدر السابق: ص 377، وينظر الورقة: عبد الله بن الجراح،تحقيق عزام وفراج، مصر ،دار المعارف،ط1، 1953،ص54-55.
[31] الورقة: الجراح، ص 115.

وامدح رغيفاً زانـهُ حـرف يحـلُّ مـن الصفاتِ
يـدَعُ الحليـم مُـدَلَّـها حيـران يغلـط فـي الصَّلاةِ
وكأنَّمـا نقـشُ الرَّغيـف نجـوم ليـلٍ طـالعـاتِ
منـعُ الـرَّغيـفِ سفاهـةٌ وتـركُ الـرَّغيـفِ من الهبات[32]

إنَّ أبا فرعون وأبا المخفف ، كانا من جملة الشُّعراء الذين استجدوا الرَّغيف استجداءاً ليناً ، وحاولوا اللَّعب على الجانب العاطفي لدى المخاطب وحسب،لكن شعراء الرَّغيف لم يكونوا جميعاً من هذا النَّوع، بل كان منهم من يحاول السُّؤال مستعطفاً ، فإن لقي سُؤلُهُ الرَّفض شنَّ على المخاطب قصيدة هجائية عاصفة تحوله إلى مثارٍ للسُّخريَّـةِ. [33]

أبو الشمقمق الشاعر

ومن هذه الفئة نذكر أبا الشمقمق، وهو مروان بن محمد (ت 200هـ)، وقد عاش هذا الشاعر ناقماً على المجتمع الذي تحاماه أهله فقيراً، محروماً، إلاَّ من بعض ما كان يسقط عليه من قائد ، أو أمير، أو شاعر بين الحين والحين، وقد أمضى شاعرنا عمره يتجرع الفاقة والبؤس حتى قالوا إنه في آخر أيامه كان يلزم بيته في أطمار بالية، وثياب خلقة متوارياً عن الناس إلاَّ أقلَّهم، ومن جيد شعر هذا الشاعر الذي لم يصف أحد من الشعراء تلك الطبقة البائسة على نحو ما وصفها، قوله في وصف الرغيف[34]

ما جمـعَ النَّـاس لدنيـاهم أنفـعَ فـي البيت من الخبـزِ
والخبـزُ بـاللَّحـمِ إذا نِلتَـه فأنت فـي أمـنٍ مـن التَّـرزِ[35]
وقد دنـا الفطـر و صبيـانُنـا ليسـوا بـذي تمـر ولا أرزِ
كانت لهـم عنـزٌ فأودى بهـا وأجدبـوا مـن لبـن العنـزِ
فلـوا رأوا خبـزاً علـى شاهقٍ لأسـرعـوا للخبـز بالجمـزِ
ولو أطاقـوا القفـز ما فاتهم وكيف للجـائـع بالقفـزِ [36]

بهذه الأبيات وأمثالها كان أبو الشمقمق يستجدي القوت لأطفاله ، فإن أجيب سؤاله قنع ، وإن قوبل بالرفض انقلب السؤال هجاءً مرَّاً يرمي حممه اللاَّهبه على الرافض، وهذا كان شأنه مع جميل بن محفوض والي أرجان ، وعمر بن مساور الكاتب ، ومع سعيد بن سلم الذي هجاه شاعرنا قائلاً :

هيهات تضـربُ فـي حديدٍ بـاردٍ إن كنـت تطمـعُ فـي نـوالِ سعيدِ
واللَّـه لـو ملكَ البحَّـارَ بأسـرها وأتـاهُ سلـمٌ فـي زمـان قدودِ
يبغيـه منهـا شربـةً لطُـهوره لأبـى وقال : تيمَّمـن بصعيـدِ[37]

[32] شعراء ومسالك في العصر العباسي: كارين صادر ،منشورات وزارة الثقافة، سورية،2007،ص19-20.
[33] شعراء ومسالك في العصر العباسي: كارين صادر، ص19.
[34] المصدر السابق، ص20.
[35] الترز : الموت، والترز : الجوع .
[36] طبقات الشعر : ابن المعتز ،ص127-128 .
[37] مختارات من شعر أبي الشمقمق : كارين صادر ،دمشق،وزارة الثقافة ،2003، ص 81 -82 .

وكان أبو الشمقمق يرى له حقاً في أية جائزة ينالها أحد الشعراء رهطه، كما كان يفرض جزية على بعضهم الآخر مقابل امتناعه عن هجائهم، ومن هؤلاء الشُّعراء بشار بن برد الذي كان شاعرنا يفرض عليه جزيةً سنويةً مقابل امتناعه عن هجائه، فإن تمنَّعَ مرَّةً، أو حاول التَّهرب أو الرفض، هجاه بأبيات لاذعة وعلَّمها للصبية الصغار، فيعود بشار بن برد للانصياع له .

السائل الهاجي (الحكم بن عبدل الأسدي الشَّاعر) :

ومن أمثال شعراء الرغيف السائلين الهاجين كان الشاعر الحكم بن عبدل الأسدي (100هـ/718م)،[38] هو الحكم بن عبدل بن جبلة...، بن أسد بن خزيمة، شاعر مجيد مقدم في طبقته، هجاء خبيث اللسان، من شعراء الدولة الأموية؛ وكان أعرج أحدب. ومنزله ومنشؤه الكوفة[39]

وقد كان فقيراً متصعلكاً، يعتمد الفكاهة في شعره كي يستخرج من جيوب ممدوحيه من المال بمقدار ما يستخرجه من أفواههم من الضحك، وقد حفظ لنا الجاحظ قصيدة من شعره يمدح بها بعض أجواد الكوفه يقول فيها:

يا أبا طلحة الجواد أغثني بسجال من سيبك المقسومْ
أَحْيِ نفسي فدتك نفسيَ فإنِّي مُفلِسٌ قد علمتَ ذاكَ عديمْ
أو تطوَّع لنا بِسَلْفِ دقيقٍ أجتزُهُ – إنْ فعلتَ ذاكَ عظيمْ
قد علمتم فلا تعامسُ عني ما قضى اللَّهُ في طعام اليتيمْ
ليس لي غيرُ جرَّةٍ وأصيصٍ وكتاب منمنم كالوشومْ
وكساءٍ أبيعُه برغيفٍ قد رَقَعْنا خُروقَه بأديمْ
و إكافٍ أعارَنيهِ نُشيْطٌ هو لحافٌ لكلِّ ضيفٍ كريمْ[40]

على هذا النحو يبدأ ابن عبدل قصيدته يستجدي بها عطاء أحدهم محاولاً منذ البداية إضحاك ممدوحه عن طريق رسم صورة لإفلاسه وهو لا يطلب إليه سوى إحياء لنفسه بعطائه ولو جراباً من دقيق ، ولم تكن هذه هي الوسيلة الوحيدة للحصول على المال، وإنَّما كان له سبيل آخر هو الهجاء وكان يلجأ إليه كلما أخفق .

والحكم بن عبدل كما ذكرنا هجَّاء، يخشاه الناس ويهابونه ويتقي لسانه الكبير والصغير، (حتى أنَّه كان إذا أراد حاجة كتبها على عصاه وبعث بها مع رسوله فلا يحبس له رسول، ولا يؤخر عنه لقراءة الكتاب، ثم تأتيه الحاجة على أكثر ممَّا قدَّر، و أوفر ممَّا أُمِّل) .[41]

أخبرني محمد بن عمران الصيرفي قال حدثنا الحسن بن عليل العنزي قال حدثني أحمد بن بكير الأسدي قال: حدثني محمد بن أنس السلامي قال حدثني محمد بن سهل الأسدي راوية الكميت: أن الحكم بن عبدل الأسدي أتى محمد بن حسان بن سعد التميمي وكان على خراج الكوفة، فكلمه في رجل من العرب أن يضع عنه ثلاثين درهما من خراجه؛ فقال: أماتني الله إن كنت أقدر أن أضع من خراج أمير المؤمنين شيئا؛ فانصرف ابن عبدل

---

[38] حياة الشعر في الكوفة : يوسف خليف،مصر ،وزارة الثقافة، لا تاريخ، ص474 .

[39] الأغاني : أبو الفرج الأصفهاني، تحقيق د:إحسان عباس،د:إبراهيم السعافين، وبكر عباس، دار صادر ، بيروت، ط3 ، 2008، 268/2.

[40] الحيوان: الجاحظ (عمرو بن بحر)، مطبعة الحلبي،1943، 297/5 .

[41] الأغاني : 265/2.

وهو يقول:

دع الثلاثين لا تعرض لصاحبها لا بارك الله في تلك الثلاثينا [42]

وقال محمد بن سهل: وما زال ابن عبدل يزيد في قصيدته هذه الدالية

رأيتُ محمداً شَـرِهاً ظَلَـوماً وكنتُ أراهُ ذا ورعٍ وقصـدٍ

فمـا يـدنو إلـى فمـه ذبابٌ ولـو طليتُ مشافرهُ بقنـدٍ

فإن أهـديت لـي من فَيْكِ حتفـاً فإنِّـي كالذي أهديت مـهدي[43]

حتى مات وهي طويلة جدا. قال: واشتهرت حتى إن كان المكاري ليسوق بغله أو حماره فيقول[44]:

عد أمات الله حسان بن سعد فإذا سمع ذلك أبوه قال: بل أمات الله ابني محمدا، فهو عرَّضني لهذا البلاء في ثلاثين درهماً، وكان من الطبيعي أن يتجه ابن عبدل بهجائه إلى الاستقراطيه الكوفية ، وأن يصب سياطه اللاذعة على الولاة والسادة.

وبالعودة إلى القصيدة التي هجا بها محمد بن حسان ، عندما سأله حاجة وعطاء فرده عنها فقال في خبره صاحب كتاب الأغاني[45] أخبرني عمي الحسن بن محمد قال حدثنا الكراني ، قال حدثنا العمري عن ابن عياش عن لقيط قال : تزوج محمد بن حسان بن سعد التميمي امرأة من ولد قيس بن عاصم وهي ابنة مقاتل بن طلبه بن قيس، زوَّجها إياه رجل منهم يقال له زياد، فقال ابن عبدل من الطويل:

أبـاعَ زيـاد سَّود اللَّه وجهَـهُ عقيلـةَ قـومٍ سـادةٍ بالـدَّراهم

ومـا كـان حسَّانُ بنُ سعدٍ ولا ابنـهِ أبـو المسك مـن أكفاء قيس بن عاصم

ولكنَّه ردَّ الـزَّمان على استـهِ وضيَّـعَ أمـر المحصنـات الكرائم

خُذي دِيَةً منه تكُّن لك عُـدَّة وجِيئـي إلـى باب الأمير فخاصمـي

فلـو كنـت في روح لما قلتُ خاصمي ولكنَّمـا ألقيتِ فـي سجـن عارمِ[46]

ومن أخباره أنَّه قدم على ابن هبيره مستجدياً فأعطاه بعد إلحاح ما أراد رغم بخله، فوقف بين يديه وقال :

أتيتك فـي أمرٍ من أمـرِ عشيرتي وأعيـا الأمـور المفظعاتِ جسيمُهـا

فإن قلـتَ لـي فـي حاجتي أنـا فاعل فقد ثَلِجَتْ نفسي وولَّـت همومها[47]

قال : أنا فاعل إن اقتصدت فما حاجتك ؟ قال: غُرْمٌ لزمني في حمالة، قال: وكم هي؟ قال: أربعة آلاف، قال نحن مناصفوكها، قال : أصلح الله الأمير أتخاف علي التخمة إن أتممتها ؟ قال أكره أن أعوِّد الناس هذه العادة قال: فاعطني جميعها سراً وامنعني جميعها ظاهراً حتى تعوَّد الناس المنع، وإلاَّ فالضرر عليك واقع إن عوَّدتهم نصف ما يطلبون، فضحك ابن هبيرة وقال: ما عندنا غير ما بذلناه لك، فجثا بين يديه وقال: امرأته طالق لا أخذت أقل من أربعة آلاف أو انصرف وأنا غضبان، فقال : أعطوه إياها قبحَّه الله فإنَّه ما علمت ، حلاَّف مهين فأخذها وانصرف وقال أبو

---

[42] الأغاني : أبو الفرج الأصفهاني،240/2.

[43] المصدر السابق:240/2.

[44] شعراء ومسالك في العصر العباسي: كارين صادر،ص22.

[45] الأغاني : أبو الفرج الأصفهاني،239/2.

[46] المصدر السابق ،268/2.

[47] الأغاني : أبو الفرج الأصفهاني:269/2.

الفرج : ونسختُ من كتاب أبي مُحلِّم قال: سأل الحكم بن عبدل أخو بني نصر بن قعين محمد بن حسان بن سعد حاجةً لرجلٍ سأله مسألته إياها ، فرده ولم يقضها فقال فيه ابن عبدل :

رأيتُ محمداً شَرِهاً ظَلُوماً وكنتُ أراهُ ذا وَرَعٍ وقَصْدِ
يقولُ أما تنـي ربِّـي خـداعاً أمـاتَ اللهُ حَسّانَ بنُ سَعْدِ
فلولا كسبـهُ لوجـدتُ فسْـلاً لئيمَ الكسب شأنُك شـأنُ عَبْدِ
ركبتُ إليه فـي رجلٍ أتـانـي كريمَ يبتغـي المعروف عنـدي
فقلت لـه وبعض القولِ نُصـحٌ ومنـه ما أسـرُّ له وأبدي
تَوَقَ دراهم البَكريَّ إنـي أخـافُ عليكَ عاقبـة التعدي
أقرِّبُ كلَّ آصرةٍ ليدنـو فما يـزداد منـي غيـرَ بعدِ
فـأقسمُ غيـرَ مستثنٍ يميناً أبـا بَخَـرٍ لتَتَّـخِمَنَّ ردِّي
فلو كنت المهذَّبَ مـن تميمٍ لخفت مـلامتـي ورجـوتَ حَمْدي
نكهـتَ عليّ نكهـةَ أخْدَريٍّ شتيـمٍ أعصـلِ الأنيابِ وَرْدِ
فما يدنـو إلى فمـه ذُبابٌ ولو طُلِيَـتْ مشـافـرُه بَقنـدِ
فإنْ أهديتَ لـي مـن فيكَ حتفاً فإنِّـي كـالـذي أهديت مهدي
فما صادفت فـي قحطان مثلـي ولاصـادفـتُ مِثـلكَ فــي معدِّ[48]

وقد فضله الحجاج في الجائزة على الشعراء[49] حين اجتمعوا عند الحجاج وفيهم ابن عبدل فقالوا للحجاج إنَّما شعر ابن عبدل كلُّه هجاء وشعر سخيف، فقال له : قد سمعت قولهم فاسمع منِّي، قال: هات، فأنشده قوله :

وإنِّـي لأستغني فيما أبطـرُ الغِنَـى وأعرِضُ مَيْسورى لمن يبتغي قَرْضِـي
وأُعْسِرُ أحياناً فتشتَـدُّ عُسـرتــي فأُدْرِكُ ميسورَ الغِنى ومعي عِرضـي[50]

حتى انتهى إلى قوله :

ولستُ بـذي وجهين فيما عَرَفتَـهُ ولا البخلُ فاعلمْ من سمائي وأرضـي[51]

فقال له الحجاج أحسنت ! وفضَّله في الجائزة عليهم بألفي درهم .

---

[48] المصدر السابق،271/2.الفسل: المسترذل الضعيف الذي لا مروءة له .يقصد بالأخدري: الأسد، والشتيم :الأسد العابس، وأعصل الأنياب:معوجها.والورد:الأحمر الضارب إلى الصفرة .

[49] الأغاني : أبو الفرج الأصفهاني ،279/2.

[50] الأغاني : أبو الفرج الأصفهاني،ص279/2.

[51] يبدو أن هذه الأبيات من قصيدة طويلة أثبت القالي أربعة عشر بيتاً منها (الأمالي2 /261).

الخاتمة:

إنَّ ما قدمناه من أشعار شعراء العوز والرغيف و الحاجة يندرج ضمن إطار شعر الكدية الشعبي، إنَّه شعر تسوده الروح الشعبية القوية وهذا لا يعني بالجزالة و الرَّصانه والتي كانت تشيع في شعر المديح في العصر العباسي .

وهو أيضاً شعر لا يُعنى بمعانيه وأخيلته، فالشاعر ينظمها عفو الخاطر غير متكلف، وهي أشعار تمسُّ القلوب بصدقها ، فما من سائل يسأل إلاَّ لحاجة أدركته، وغالباً ما تكون الحاجة ملحة إلحاح الجوع .

وإن كان بعضهم قد أفحش في الهجاء بحثاً عن مزيد من العطاء ، أو غالى بالتذلل استدراراً للعطاء، فإنَّ هذا كلَّه لم يصدر إلاَّ عن فاقة وعوذ . فهؤلاء جميعاً كانوا صوراً حيَّةً وصادقةً ومعبِّرةً عمَّا كانت تعانيه طائفة الفقراء والمعدمين من خفض كبير في مستوى المعيشة في عصر اتصف بأنه عصر الحضارة والغنى والثراء ولكن لمن ؟ لطبقة من الناس والحكام دون غيرهم .

لقد حاول هؤلاء الشعراء أن ينسجوا من القصائد دروعاً وهمية تقيهم شرَّ الفقر ، لكن رغم كل ما حاولوه ، إلاَّ أنَّهم ماتوا كما عاشوا معوزين، ولكن قصائدهم النابضة بالصدق بقيت حية .

ويعدّ شعر شعراء الرغيف وثيقة تاريخية تكشف عن كثير من جوانب المجتمع العباسي، ومما يحمد لشعراء الرَّغيف تجديدهم الواسع في بنية القصيدة، فألغوا مقدماتها حيناً، واستبدلوا بها مقدمات تصف فقرهم وسوء أحوالهم حيناً آخر، وحاولوا الاستقلال بأشعارهم في القصيدة حيناً ثالثاً، لكن جميع محاولاتهم لم تكن قادرة على التصدي لتقاليد الشعر العربي الراسخة، ولاسيما المقدمات، والتغلب عليها، وإن كانت محاولاتهم جديرة بالاهتمام.

المراجع:

1- الأغاني: لأبي الفرج الأصفهاني ، تحقيق د. إحسان عباس ، د0 إبراهيم السعافين ، د0 بكر عباس ، دار صادر، بيروت، ط3 ،2008م.

2- الأمالي: لأبي علي القالي ، تحقيق الشيخ فتحي هلل، الشيخ سيد بن عباس الجليمي، المكتبة المصرية ، صيدا ،بيروت ، 2006م.

3- اتجاهات الشعر في القرن الثاني الهجري : مصطفى هدارة ، مصر، دار المعارف، 1963.

4- حياة الشعر في الكوفة : يوسف خليف،وزارة الثقافة، مصر، بلا تاريخ.

5- الحيوان: الجاحظ (عمرو بن بحر)، مطبعة الحلبي،1943 .

6- شعراء ومسالك في العصر العباسي: كارين صادر، منشورات وزارة الثقافة ، سورية،2007.

7- طبقات الشعر : ابن المعتز، تحقيق عبد الستار أحمد فراج،مصر ، دار المعارف ،1965.

8- العصر العباسي الأول: شوقي ضيف، مصر، دار المعارف، ط2 ،1966م.

9- العصر العباسي الثاني: شوقي ضيف، مصر، دار المعارف، ط2 ،1966م.

10. مختارات من شعر أبي الشمقمق : كارين صادر ،دمشق،وزارة الثقافة ،.2003

11- الورقة: عبد الله بن الجراح،تحقيق عزام وفراج، مصر ،دار المعارف،ط1 ،1953.